دراسات

العلم في الخطاب السِّياسي للإمام علي

قراءة في وصيَّته إلى كميل بن زياد

د. ابراهيم بيضون*

(١)

وكأنه مفْعمٌ باليأس، وقد حاصره النِّفاقُ، وحوله الناكثون والقاسطون والمارقون[١]. . والإسلام يُختزل شعارات فضفاضة. . والتَّصفيق ما زال يشقّ الفضاء. ها هو رئيس القبيلة في طريقه إلى البيعة، على أن تكون له صدارة المكان، وآخرون أيضاً هناك، قدّموا الطاعة وعادوا إلى «ديارهم»، ليس يعلمون ما حدث، سوى أن القبيلة استعادت كيانها، وأن الحاكم الجديد كفاها مشقّة التَّرحال، واستقرّت تتلقى عطاءً مجزياً، وعدا ذلك فهي تجهل لماذا قاتلت، أو تشاجرت من قبلُ في الفتنة التي أنست إليها، ووجدت فيها ميدانها الأثير. والماضي «الجاهلي» لا يختلف كثيراً عنه الحاضر الإسلامي. . فالشعر «يتلوه» القوم، و «الأيام» «أحاديثُهم» المنتقاة. . والجميع في النهاية لا يحسنون تلاوةً أو قراءةً، ولكنهم مع ذلك يتبادلون كلماتٍ عن الإسلام والقرآن والرسول والصحابة. .

كان يعرف ذلك جيداً، والانهيار قرأه بتمعُّن منذ اغتيال الخليفة عمر، الفتنة الأولى في الإسلام. وقد حاول دفع الثانية (الثورة على عثمان) فلم يستطع. . وركب مُكرهاً إلى الثالثة (حرب البصرة)، فلم تطب نفسه بالنَّصر، والرابعة (الحرب مع معاوية) تراءت له قبل أن يصبح خليفة، وكان كارهاً لذلك أيضاً. . وكان أمراً لا بدّ منه كي لا يصبح الإسلام القبلي هو السائد، وتنطفئ الرسالة فلا يبقى سوى الشعارات. . كان ذلك واضحاً وهو يجازف من أجل البقية التي رفضت التسليم

---

* أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة اللبنانيَّة

بـالهزيمـة، ولـم يكن أمامه سوى الدخول في المحاولة تحصيناً لها ـ أي البقية ـ في وجه الانحراف.

وكـأنـه، والمرارة تملأ نفسه، بات يتحدَّث بلغة غير مفهومة، وخطابه أصبح ثقيـلاً علـى القـوم. وعندما قال: «أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي»[٢]، سقط فـي الامتحـان، وفاز عليه «مرشح» بغير «علمه وطاقته»، فانعقد «اللواء»[٣] مجدّداً لبني أمية، وتمَّت استعادةُ «المُلك» المفقود. كيف يكون ذلك؟ وكيف حدث أن تكتّـل «المُبشّـرون بـالجنـة» ضد الرجل المسكون بالإسلام، فآثروا العصبيَّة على العلم، والمصلحـة علـى المبدأ. هل خانتهم الذاكرة حينذاك، فنسوا شهادة الرسول فيه: «علي بن أبي طالب أعلم أمتي وأقضاها في ما اختلفوا فيه من بعدي»[٤].

(٢)

كان ذلك يجيش في نفسه عندما أخذ بيد كُميل بن زياد و «أصحر» به، فتنفَّس حينذاك الصعداء[٥]. . ولطالما كان يفضي إلى كميل، وهو المثقَّف الواعي بالتاريخ، والحاملُ في صدره شجون المرحلة، بمعاناته، بعدما رحلت النخبة أو معظمها عن قضيتهـا، فهـادنت أو اعتـزلت أو شهـدت زوراً على العصر. ما أصعب أن يحدث ذلك، والإسلامُ الذي نشأ فيه، تتعثّـر مسيرتُـه ويكتنفُ آفاقه الضباب، فتتبدّد الآمال بالإصلاح واسترداد الضوء. ولكنه مع ذلك يرفض الإذعان لليأس، ولا يزال مراهناً على البقية التي حدّدت خيارها باليقين، وترسّخت مواقفُها بالإيمان والعلم.

وفي ذُروة المعاناة يبقى الدَّور متوهِّجاً، والمشروع الذي بدا أنه اصطدم بطريق مسدود لم يكن بالضرورة لمرحلة ما، ولكنه مستمرٌ ما استمرّ الصراع بين الخيرِ والشر، وبين العـدل والظلم، وبينَ الحق والباطل، وبين العلم والجهل. . وقبل ذلك بين حزب الله وحزب الشيطـان، وغيرِ ذلك مما نجده من ثنائيات نهج البلاغة بصدد التنظير لذلك المشروع.

والصـراعُ المتفـاقـمُ كان لا يزال بين العلم والجهل، تنحاز إلى الأوَّل صفوة تشبّثت بخيارهـا الصعـب وصمـدت أمـام المغـريـات، وإلى الثاني أغلبية ضلّت أو ضلّلت، وهي في جميع الأحوال أكثر علماً بأنساب القبائل من سيرة الرسول ﷺ.

(٣)

ماذا قال الإمام في وصيته لكميل حين اصطحبه ذات ليلٍ إلى ضاحية الكوفة، وقد غمره شجن ثقيل:

«يا كميل، إن هذه القلوب أوعيةٌ فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك، الناس ثلاثة: فعالمٌ ربَّانيٌ، ومتعلِّمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رَعَاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ يميلون مع كل ريحٍ، لم يستضيئوا بنور العلمِ ولم يلجأوا إلى ركنٍ وثيق»[٦].

نتوقف برهةً أمام هذا التوصيف الإبداعي، بأن خير القلوب، تلك الأكثر وعياً بالتاريخ، وشرَّها التي اختلجت بالجهل، فتلاشت فيها البصيرة وماتت مفتوحة على كل غرضٍ آني، يأخذها في أي اتجاه، وهي نفسها «القلوب الفارغة»[٧] التي شدّد عليها محمد بن علي العباسي في وصيته لدعاته، بأن يذهبوا إلى خراسان، حيث القبائل الذاهبة في الفتوح أو المبعدة إلى تلك الولاية النائية، ولم يكن في جعبتها من الإسلام غير اسمه، ومن المعرفة سوى أنسابها. فتأجَّجت العصبيات، وفرغت القلوب من الإيمان، فانقادت القبائل إلى حيث شاء المتصارعون، ولم تجد بالتالي في ظلّ بني العباس بعد انتصارهم سوى الفراغ، ذلك الذي امتلأ بعد حين بقبائل مرتزقة، من صنف آخر، أفرغت الخلافة من محتواها، وأقامت على أنقاضها سلطة الجهل. تلك هيَ الفئة التي وضعها الإمام في الموقع الأخير من تصنيفه السالف، والتي فرغت قلوبها من نور العلم وسارت في الطريق الموحش نحو الظلام.

يتابع الإمام حديثه، والعلم لا يزال الهاجس، وهو الذي خاض في التجربة وتكشفت له القلوبُ المسكونة بالجهل، فيقول: «يا كميل؛ العلم خيرٌ من المال، العلم يحرسُكَ وأنت تحرسُ المال، والمال تنقصُه النفقة والعلمُ يزكو على الانفاق، وصنيعُ المال يزول بزواله». وليس أبلغ من قول كهذا في المَقارنة بين العلم الخالد وبين المال الزائل ثم يضيف كلمات تنساب مجدّداً على إيقاع إبداعي في السياق عينه: «يا كميل هلك خُزّان الأموال، وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر»[٨].

بيد أن البلاغة تتعدَّى الدرس الأخلاقي والتربوي إلى النظرية السياسية، فتبلغُ أرقى صورها في السياق، إذ أن العلم ليس مقترناً بالمطلق مع الخير، فثمة الذين

يختزنونه في الصدور ولم يعملوا بما ينفع الناس به، فهم أشبه حالاً بمن يكدّس الأموال في الخزائن، وحينذاك «يموت العلم بموت حامله» كما جاء في «النهج»(٩). وثمة الذين أعطوا العلم وسخّروه للشر، هؤلاء «العلماء إذا فسدوا ـ كما في قول مروي عن الرسول ﷺ ـ لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم»(١٠). وهكذا في خطاب الإمام يصبح العلم مقترناً بالعقل، المقترن بدوره بالحقيقة، وهو ما شدّد عليه ابن خلدون(١١) في مقدمته، فيما الجهل يفقد صاحبه البصيرة، «فينقدح الشك في قلبه ـ والكلام هنا للإمام ـ لأول عارض من شبهة»(١٢).

والقضيةُ ـ مبادئ وقيماً ـ وإن سادت عليها العصبيات المؤسّسة على الجهل، تبقى مضيئة في قلوب العلماء، وتتوهّج يقيناً في عقولهم، فلا تعمرُ من دونهم أرض، ولا يستقيم نهجٌ، ولا تتراءى آمالٌ في عيون المثقلين بوجع الزمن. فلا بدّ إذاً من هذا المنقذ الذي ينبعث من المعاناة، وينطلق من الصفوة، مطابقاً لهواجسها وأفكارها ونضالاتها المستمرَّة في مقاومة الظلم والاستبداد والانحراف. والإمام مفعم بالتجلّيات، فلا يخامره شك في أن الأمة قادرة على استيلاد القادة النورانيين، ليحدثوا التغيير المنشود، وليقيموا سلطة الحق والعدل. يؤكد على ذلك بنبرة العالم الواثق:

«اللهمّ بلى، لا تخلو الأرضُ من قائم لله بحجّة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حُجَجُ الله وبيِّناته.. أولئك ـ والله ـ الأقلّون عدداً والأعظمون قدْراً، يحفظ اللهُ بهم حُجَجَهُ وبيناته حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلمُ على حقيقة البصيرة، وباشروا روحَ اليقين، واستلانوا ما استوعره المترفون، وأنسوا ما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقةٌ بالمحل الأعلى، أولئك خلفاءُ الله في أرضه، والدعاةُ إلى دينه»(١٣).

والإمام الذي اختصّه اللهُ بهذا العلم، كان لا يزال من خلاله يستشرفُ الزمن، فيذهب في قراءته بعيداً له، وحضوره لا ينفك قائماً على مساحة الفكر الإنساني، واعظاً، مرشداً، منظّراً، وليس أخيراً مبشّراً بالتغيير الذي يتناقل راياته أولئك العلماءُ الذين وصفهم بأنهم «خلفاءُ الله في أرضه». فهم الذين نذروا أنفسهم للجهاد، وقدرُهم أن يتابعوا المسيرة، سواء كانوا في الواجهة ظاهرين، أم «مغمورين» يعملون في الخفاء. وهي مسؤوليةٌ لا تعفي العالم من التصدي لها في زمانه، وليس عليه

الاعتزالُ من دور هو في صميمه، إذ هو المعوّلُ عليه في التغيير ونشدان السلطة العادلة، وغيرُ مباحٍ له الركوبُ إلى الملوك، الأمر الذي حذر منه الإمام الصادق عليه السلام، عندما يتنازل العلماء ـ وهم «أمناء الرسل» حسب تعبيره ـ عن دورهم القيادي، ليصبحوا منقادين للحاكم، يكتبون بقلمه، ويشرّعون لسلطته الظالمة. ولقد كان الصادقُ ممن ورث العلم وتسامى دوراً ورسالةً به، وقال في النهاية كلاماً مطابقاً لما صدر عن الإمام علي عليه السلام. ولم يصرّح بذلك إلاّ بعدما رأى من تهافت للعلماء على السلاطين، يزاحمون الشعراء في مجالسهم، ويصفّقون مثلهم، ويتلقّوَن الهبات المجزية على غرارهم. وإذا كان لكل خليفة شاعر، فإن له أيضاً فقيهاً يُصنّف ما يوحي به، أو في أحسن الأحوال في ما لا يثير اعتراضاً لديه. هكذا كان الزهري فقيه البلاط الأموي في عهد هشام، وابن إسحق فقيه المنصور، والواقديُ فقيه المأمون، إلى الزبير بن بكار الذي صنّف كتاباً حمل اسم أبي أحمد الموفق، أخي الخليفة المعتمد، وغيرهم من نماذج مماثلة في العهود العباسية.

هؤلاء يندرجون في الفئة الثانية من تصنيف الإمام الذي سلفت الإشارة إليه، والتي يقع فيها «المتعلم ـ وليس العالم ـ على سبيل نجاة». فقد حابوا السلطة التي شككوا في شرعيتها، وما انفكوا يسوّغون لها المواقف، ويروّضون من أجلها التشريع. أما الذين يمثلون الفئة الأولى (العالم الرباني)، فليس بالضرورة أن يعلنوا عن أنفسهم، ولو فعلوا، لما نجوا من قتلٍ أو سجنٍ أو ملاحقة، وقد حدث مثلُ ذلك كثيراً خلال الأزمنة.

وفي نهج البلاغة يخاطب الإمام الأنموذج الأول، محمّلاً الصفوة من أهل العلم مسؤولية القيادة، ومحذّراً إياها الوقوع في الخطأ، وكلّ ما يؤدي إلى الارتياب بسلوكها، لتبقى المثال والقدوة، راسخةً في النهج الذي يكسبُه العلمُ وضوحاً وصدقية، كما جاء في خطبة له، إذ يقول:

«فالناظرُ بالقلب، العاملُ بالبصر، يكون مبتدأ عمله أن يَعْلَمَ: أعَمَلُهُ عليه أم لَهُ، فإن كان له مضى فيه، وإن كان عليه وقف عنه؛ فإن العامل بغير علم كسائر في غير طريق، فلا يزيدُه بُعدُه عن الطريق إلا بُعداً عن حاجته، والعاملُ بالعلم كسائر على الطريق الواضح، فلينْظرُ ناظرٌ أسائرٌ هو أم راجعٌ»(١٤).

(٤)

والإسلام بُني دعوةً على «الكتاب»، وتأسّس مجتمعاً في ضوء تجربة الرسول ﷺ، والخطابُ كان لا يزال موجّهاً إلى العقل، مبتعداً عن الغرائز، فاتحاً بذلك الطريق إلى الانتصارات الباهرة التي حقّقها خلال وقت يسير من الزمن. وابتداءً كان العلمُ المستمدُّ من «الكتاب» و «الحديث»، ما شكّل أساس السلطة في المجتمع السائر نحو تكوينه وتعميق جذوره، على نحو ما حدث في مرحلة ما من العهد الراشدي. وعندما استعادت العصبية حضورها، كان يعني ذلك بداهةً هزيمة العلم الذي اقترن بالعدل، فيما العصبية جنحت إلى الاستبداد، لبعدها ـ وليس بالضرورة استبعادُها ـ عن مصادر العلم الإسلامي.

هكذا رأى الإمام إلى السلطة، قارئاً بتمعُّن صيغتها في «الكتاب» ومستلهماً عن كثب صورتها الرسولية.. سلطة تقوم على العدل، وليس من عدل في النتيجة من دون علم ومعرفة شاملة بالتفاصيل. فيتوهجُ العقل حينذاك بنور إلهي، منفتحاً على الحوار، مخاطباً إنسانية الإنسان. والعدل من هذا المنظور يرتكز ـ كما جاء في سياق آخر من «النهج» ـ إلى «أربع شُعَب: على غائص الفَهم، وغَوْر العلم، وزُهْرة الحُكم[١٥]، ورَسَاخة الحلم: فمن فَهِمَ علمَ غورَ العلَم، ومَن علم غَورَ العَلم صدرَ عن شرائعِ الحكم، ومن حَلُمَ لم يُفرّطَ في أمره وعاش في الناس حميداً»[١٦].

ويبقى «النهجُ»، في النهاية، الطريق الواضح والعلمَ الذي يضيء العقل وينفحُ القلوب بالإيمان. والخطابُ السياسي على مساحته مطابقٌ للعقيدة، ذاهبٌ مداه في الجذور، نابضٌ بحركة الزمن ومتغيراته، وهو خطاب أخذ عمقه في التنظير الذي أكسبه تلك الفرادة على صعيد الفكر الإنساني، واستمد العلم من الينابيع، فتسامت فيه الرؤية، وارتقى الاستشراف، وتجلّت المفاهيم. والإمام من هذا المنطلق لم يعبّر عن موقف زُهدي يفضي به إلى السلبية، وإنما كان خلافاً لذلك منخرطاً بكليّته في المجتمع، ومحاوراً الأطراف كافة على مساحته. ولكنه إذ وجد السلطة تبتعد ـ لأسباب يعرفها ـ عنه، فقد امتلأت نفسه أسىً، وشعر بأن الدور الذي تهيأ له أخذ في الابتعاد، خصوصاً في الوقت الذي هبّتْ فيه رياحُ الفتنة، فبدا عاجزاً حينذاك عن

التصدّي للانحراف وإنقاذ الخلافة بمعناها السياسي الفكروي. وعندما حانت الفرصة، كان الدور قد فقد بريقَهُ وتلاشت الآمال بالسلطة التي تنبض بمشروعه، وتعبّر عن خطابه، فانكفأ إلى نفسه باحثاً عن الصفوة، بقيَّة السيوف، تلك التي تشبثت بنهجه، وصمدت أمام التحديات، وأضاء في وعيها التاريخ.

وكأن «كُميلاً»، ذلك الصديق القريب إليه، المثخنُ بجراح التجربة، هو رسولُه إلى الصفوة.. فقرأ عليه وصيته، وحمّله خطابه ممهوراً بالمعاناة، وقد عصف به الشوق وتاقت نفسُه إلى رؤيتهم، أوشك الذين استضاؤوا بنور العلم قبل أن يلتفت نحوه قائلاً: «انصرف إذا شئت»[١٧].

الهوامش:

(١) انظر خطبة الإمام بعد قدومه إلى الكوفة من صفين، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١٩٣.
(٢) الطبري، ج٤، ص ٢٣٣.
(٣) قائد اللواء إحدى وظائف دار الندوة قبل الإسلام وكان معقوداً لبني أمية بقيادة أبي سفيان.
(٤) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج٢، ص ٣٢. انظر قول المقداد أثناء «الشورى»: «إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول أن أحداً أعلم منه ولا أقضى منه بالعدل» الطبري، ج٤، ص ٢٣٣.
(٥) نهج البلاغة، ج٣، ص ١٨٦. وانظر: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ٢٠٥.
(٦) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٨٦.
(٧) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص ٢٠٤.
(٨) نهج البلاغة، ج٣، ص ١٨٧.
(٩) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٨٨.
(١٠) ابن عبد ربه، العقد الفريد (مختصر)، ص ١٢٣.
(١١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣.
(١٢) نهج البلاغة، ج٣، ص ١٨٧ و١٨٨.
(١٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٨٨.
(١٤) المصدر نفسه، ج٢، ص ٥٨.
١٥) أي حسنته، المصدر نفسه، ج٣، ص ١٥٧.
(١٦) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٥٧ و١٥٨.
(١٧) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٨٩.